الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
مديرية الآثار العامة
بغـــداد

سومر

مجلة علمية تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه

الجزء الاول والثاني | ١٩٧٣ | المجلد التاسع والعشرون

General Organization Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

ثبت الجزء

الصفحة		
أ	تقديم	الدكتور عيسى سلمان
٣	نظرة في عملية تدجين النبات والحيوان	سعدي الرويشدي
١٣	التنقيب في قاليج أغا (أربيل) الموسم الرابع (١٩٧٠)	اسماعيل حجارة
٣٥	عشتار وتموز جذور المعتقدات الخاصة بهما في حضارة وادي الرافدين	الدكتور فاضل عبدالواحد علي
٧١	حركة تحررية في فترة عصور ما قبل التاريخ وعلاقتها بالفن السومري	الدكتور فوزي رشيد
٨٣	بحث في الامثال العراقية دراسة مقارنة لامثال المجتمع العراقي القديم والمعاصر	الدكتور عبدالهادي الفؤادي
١٠٧	دراسة تحليلية للتأثير البابلي في آثار تيماء	الدكتور صبحي انور رشيد
١٥١	هرقل ـ جندا (اله الحظ في الحضر)	الدكتور واثق الصالحي
١٥٧	معبودات الحضر	جورج حبيب
١٧١	تنقيبات البعثة الآثارية في منطقة مليحه ـ الشارقة ـ دولة الامارات العربية المتحدة	الدكتور طارق مظلوم
١٨٣	فخـار حفريات منطقة مليحه ـ الشارقة ـ دولالة الامارات العربية المتحدة	منير يوسف طه
١٩٧	سقايا بغداد	عطا الحديثي
٢٠٧	مميزات الزجاج العراقي في العصور الاسلامية	هناء عبدالخالق
٢٢١	ملابس الندامى في العصر العباسي	الدكتور صلاح العبيدي
٢٢٩	نقود الدولة الجلائرية المحفوظة في المتحف العراقي	مهاب البكري
٢٤٥	جامع الحيدرخانة عمارته وموضعه	أسامة النقشبندي
٢٥٧	معالجة صدأ النحاس والبرنز	علي النقشبندي
	التقارير والانباء والمراسلات	
٢٦٧	اقتصاد دولة سومر	ترجمة ـ سليم طه التكريتي
٢٨٩	من تاريخ الفترة الآشورية في القسم الجنوبي من العراق	ماجد عبدالله الشمس
٢٩٩	منجزات ومشاريع مديرية الآثار العامة	صادق الحسني

حركة تحررية في فترة عصور ما قبل التاريخ
وعلاقتها بالفن السومري

بقلم : الدكتور فوزي رشيد
مدير المتحف العراقي

ان هذا البحث القصير ربما يبدو لفئة من القراء بادىء الامر على انه محاولة يائسة لا جدوى من ورائها ، لانه بحث سوف لا يستطيع اطلاقا اثبات حركة فكرية حدثت في فترة عصور ما قبل التاريخ • ومن المحتمل أيضا ان هناك فئة أخرى سوف تنشد الى عنوان المقالة وتحاول قراءتها بشغف لترى طبيعة تلك الحركة التحررية ، وأعتقد ان هذه الفئة قد يصيبها بعد الانتهاء من قراءتها بعض من خيبة الامل خصوصا اذا اعتقدت ان هذه المقالة قادرة على ايضاح الحركة التحررية وكل ما رافقها من تنظيم ونضال وتعذيب بالشكل الذي يوضح حاليا عن الحركات التحررية التي حدثت في العصور المتأخرة • وملخص القول ان هذا البحث في محاولته لشرح الحركة المذكورة يشبه الى حد كبير محاولة أي شخص يروم قراءة كتابة قديمة متآكلة لم يبق من كلماتها الا ظلالها • ومن هذا التشبيه نود ان نبين للقراء بأنها محاولة لبحث موضوع لم يبق من آثاره المادية الا ظلالها أيضاً •

وما دام هذا البحث يتناول موضوعاً حساساً حدث في فترة تسبق ظهور الكتابة ، أجده ضروريا أن ابدأ القول بان دراستنا للتاريخ القديم وتحديدنا للعوامل المؤثرة في تطوره لا تعني بأي حال من الاحوال ان التاريخ الحقيقي قد سار فعلا وفقا للعوامل التي نتوصل الى تحديدها لان نتائج دراستنا تمثل في الواقع مقدار تحسسنا فقط للتاريخ وللعوامل المؤثرة في تطوره • وكذلك الحال مع العلوم الطبيعية ، فقوانين علم الفيزياء مثلا لم تنتج من معرفتنا

للعلاقات الحقيقية القائمة بين الاشياء المادية في الطبيعة وانما هي في الواقع انعكاس لنوعية احساسنا بتلك العلاقات ، فالجاذبية مثلا اعتبرت من قبل نيوتن بانها قوة بينما اعتبرها اينشتاين ظاهرة •

وكلنا يعلم بان أحاسيسنا كما يثبت ذلك الواقع مشروطة بمؤثرات أقوى منها كالفترة الزمنية والمرحلة العلمية التي نعيشها وطبيعة مجتمعنا اضافة الى بقية المؤثرات الاخرى كالقومية والطبقية والحالات النفسية التي يعانيها كل منا • كل هذه المؤثرات في أحاسيسنا تجعلنا في حالة لا تسمح لنا بان نفهم التاريخ بحقيقته المجردة •

ومن هذا العرض القصير أود ان أبين ان ما سأقدمه للقراء حول أقدم حركة تحررية في التاريخ شهدها الشرق الاوسط تمثل بلا شك تحسساتي الشخصية لآثار هذه الفترة وقد استندت في مناقشة هذا الموضوع على قوانين حضارية استنبطناها من حوادث الفترات التاريخية ومن خلال هذه القوانين حاولت أن ابين بان العراق القديم قد عاش فعلا حركة تحررية تعود بتاريخها الى حوالي ٥٠٠٠ ق•م• ولبيان ذلك أبدأ بما يلي :ـ

لقد قامت مديرية الآثار العامة بتنقيبات أثرية لعدة مواسم في موقع تل الصوان الواقع بالقرب من مدينة سامراء الحالية والآثار التي اكتشفت في هذا الموقع قد أثارت في حينه اهتمام الاثاريين لما حوته من دمى حجرية تظهر لاول مرة وبعض هذه الدمى نسائية وبعضها الآخر رجالية ، واضافة الى هذين النوعين من الدمى فقد عثر بكثرة في الموقع المذكور على آثار حجرية تشبه العضو الذكري للرجل وقد فسرت في حينه على انها رمز للخصوبة وفي هذه المقالة القصيرة نسبيا أود ان اعرض للقراء بأن الآثار المذكورة هي التي أوحت لي مناقشة هذه الناحية المهمة التي يصعب تلمسها في فترة عصور ما قبل التاريخ الا وهي الحركات التحررية التي حدثت في بداية الالف الخامس قبل الميلاد وهي تلك الفترة التي كانت خالية من الكتابة • ولبيان الاسباب الموجبة للحركة التحررية التي تلمستها من آثار موقع تل الصوان على ان ابين نوعية الحضارات التي كانت في العراق قبل حدوث هذه الحركة التحررية المفترضة • وأعتقد ان قسما كبيرا من القراء يعلم بان الحضارات التي سادت في الاقسام الشمالية من العراق كانت حضارات زراعية تعتمد في انتاجها بصورة رئيسة على المطر كما هو الحال في الوقت الحاضر بالنسبة للزراعة في الاقسام الشمالية من العراق حيث انها تعتمد كذلك بصورة رئيسة على المطر ، ولهذا السبب وجدنا ان اولى هذه الحضارات الزراعية القديمة نشأت في المناطق التي كانت أمطارها الفصلية كافية لنمو الزراعة ، وقد لاحظنا كذلك من المخلفات الاثرية لهذه الحضارات الزراعية بان العبادة التي كانت سائدة آنذاك هي تقديس فكرة الخصوبة وكل ما يولد حياة جديدة ورمز لهذه العبادة بالآلهة المصورة للأم باعتبار ان الأم ظاهريا هي العنصر الوحيد المنتج للحياة بين الجنس البشري •

هذا وربما لا يوافقنا البعض على استنتاجنا لنوعية عبادة هذه الحضارات الزراعية من خلال الدمى المصورة للأم ولا يوافقنا على اعتبار كون

هذه الدمى تمثل الآلهة الأم وانما هي مجرد دمى نسائية • وجوابنا على ذلك ان جميع العبادات القديمة مهما كانت موغلة في القدم نجد لها في الوقت الحاضر بقايا في ديانات بعض الشعوب البدائية أو على شكل تقاليد تمارس في المناسبات الدينية والدنيوية عند الشعوب المتمدنة • فعبادة الخصوبة وما يولد حياة جديدة التي افترضنا وجودها عند سكان هذه الحضارات الزراعية القديمة نجد بقاياها حاليا ضمن التقاليد التي تمارس في عيد الفصح عند المسيحيين حيث تقدم في هذه المناسبة هدايا الحلوى على شكل البيضة والارنب • فالبيضة رمز للحياة الجديدة والارنب رمز للخصوبة والكثرة ، لان الارنب كما هو معروف من الحيوانات الولودة بكثرة وكذلك الحال بالنسبة للعبادات الطوطمية التي نجد لها بقايا عند القبائل الاسترالية البدائية ووجدناها كذلك على شكل رموز ضمن الحضارات المتقدمة وكمثل على ذلك ، ان دويلات المدن المصرية قد اتخذت لنفسها شعارات ذات أصل طوطمي كشعار الصقر والكلب والعقرب • فمن هذا نستطيع ان نقول بان النظام السياسي القديم في مصر كان ذا طابع طوطمي ومستقلا عن الديانة الطوطمية المحضة في الوقت نفسه •

واضافة الى ما تقدم فان الحضارات الزراعية القديمة التي تعتمد على المطر لا تحتاج من الارض الا الخصوبة اذ بتوفرها يكثر الانتاج الذي هو أساس البقاء لاولئك السكان •

والسبب الذي يدفعنا الى التأكيد على ان الخصوبة كانت تمثل محور ديانة هذه الحضارات الزراعية يعتمد على القانون الذي يتحكم بالتطور اذ ينص هذا القانون على ان كل ظاهرة حضارية حديثة كانت أم قديمة لابد وان تكون قد مرت بمراحل تطورية وأصبح شكلها يختلف كثيرا عن الاصل الذي نشأت منه ولكن مع هذا نجد بان التطور قادر على تغيير المظهر فقط أما الجوهر فلا يتمكن منه • فالانسان والطبيعة تتحكم فيهما قوانين لا يمكن التخلي عنها • وكمثل بسيط على القوانين الطبيعية التي لا يمكن التخلي عنها هو اننا لو شاهدنا عملية التطور التي رافقت وسائط النقل المائية عبر العصور والمرحلة التي بلغتها في الوقت الحاضر والتي لا تقارن بالنسبة للوسائل الاولى ولكن مع بلوغ هذه الوسائط المرحلة الراقية من التطور فانها لم تتمكن من التخلي عن جوهر الاشياء الطافية المتمثل في قانون ارخميدس وكذلك الحال بالنسبة للانسان فانه مهما يتطور فهو كان وما زال يعبد تلك القوة التي تساعد على بقائه وفنائه في آن واحد • لان المحرك الرئيس في الانسان هو خوفه من الفناء ورغبته الملحة في الخلود ، وما دامت الحضارات الزراعية التي تعتمد على المطر يضمن استمرارها وبقاءها بتوفر الخصوبة وتكاثر الحيوانات فاننا نستطيع ان نخمن بكل ثقة إنّ هذين العاملين كانا محور ديانة هذه الحضارات، ومما يؤيد ذلك أكثر فأكثر هو ان الحركة التحررية التي تنوي هذه المقالة اثباتها لم تحدث في الواقع الا كنتيجة حتمية للديانة التي نحن بصددها اذ خلال حضارة سامراء التي هي من أواخر الحضارات ذات الزراعة الديمية التي سادت في الاقسام الشمالية من العراق والتي انتشرت بسبب زيادة السكان في مناطق أمطارها السنوية متذبذبة غير مستقرة ، وأقصد بالتذبذب

هو ان أمطار هذه المناطق تكون سنة كافية لنمو الزرع وأخرى غير كافية كما هو الحال في الوقت الحاضر في كثير من المناطق الشمالية وبالاخص في منطقة الجزيرة • وهـذا التذبذب من ناحية الامطار دفع انسان هذه الفترة لأن يهتم بالعوامل الجوية المؤثرة في المطر والزرع والحصاد أكثر من اهتمامه بالخصوبة وما يولد حياة جديدة لان الخصوبة لا قيمة لها بلا مطر والحيوانات المولدة للحياة الجديدة تتهدد حياتهـا بلا زرع ، فهـذه الناحية كمـا يبـدو لي أدت الى ظهـور حركة دينية جديدة تعتمد في طقوسها على قدسية العوامل الطبيعية • وهذا التصور يعتمد بلا شك على ما سبق وان ذكرته بان الانسان دائما وأبدا يعبد ويهتم بتلك القوة التي تساعد على بقائه وتقيه الفناء وما دامت هذه الناحية تتمثل في توفر المطر خلال حضارة سامراء فبلاشك يصبح تصورنا في محله عندما نفترض بان انسان هذه المرحلة بدأ يهتم بالعـوامل الجـوية المـؤثرة في المطـر والزرع والحصاد أكثر من اهتمامه بالخصوبة •

ولـكن ما دام مجتمع حضارة سامراء قـد انتضمت مصالحه ومنافعـه ونفسيته وفق الديانة الاولى فانه بالتأكيد قـد حارب الافكار الجديدة بكل قوة ومما لا شك فيـه ان أصحاب المصالح المتضررة قد احتضنوا الديانة الجديدة وبرز من بينهم مناضلون أشداء ومفكرون فلسفوا هـذه الافكار وبرمجوها مما دعا من لا مصالح لهم لأن يؤمنوا بها أملا منهم في ان الافكار الجديدة قد تحسن من أوضاعهم ، وهي على كل حال لا تؤثر فيهـم بشيء لانهـم لا يملكون مصالح تتضرر بتبنيهم الافكار الجديدة • وهذا لابد وان يكون قد سبب في ظهور حركة تحررية في هذه الفترة الموغلة في القدم أنصارها ممن لا مصالح لهم ومن الطبقة المدركة وخصومها تلك الطبقـة المستفيدة من العبادة السابقة وقياسا على الحركات التحررية العـديدة التي شهدتها العصور التاريخية وحتى وقتنا هـذا نستطيع ان نخمن بان أنصار الافكار الجديدة قد لاقوا اضطهادا وتشريدا وخصومها قد قاموا بمحاولات اصلاحية تسعى لشد الناس الى الافكار القديمة المعتمدة على عبادة الخصوبة وكل ما يولد حياة جديدة ومن هذه الاصلاحات التي نخمن انها قد اجريت في هذه الفترة هي ادخال عنصر الرجل كرمز الى الخصوبة وتوليد الحياة الجديدة ورمز لذلك بالعضو الذكري للرجل الذي وجد منه بكثرة في موقع تل الصوان القريب من مدينة سامراء الحالية •

وهذه المحاولة الاصلاحية اعتبرها محاولة ذكية لانها من الناحية العملية ذات حدين ، الاول هو ان ادخال عنصر الرجل الى جنب المرأة كرمز الى الخصوبة وما يولد حيـاة جديدة لا يخرج العبادة القديمة عن اطارها والحد الثاني هو كسب الرجال من الناحيـة العاطفية وشدهم الى الديانة القديمة ، اذ ان تمرد الفرد على فكرة الخصوبة وما يولد حياة جديدة بعد هذا الاصلاح سيكون في هذه الحالة تمرداً على نفسه •

والناحية الاخرى التي توحي لي بان مجتمع حضارة سامراء قـد جند فعـلا كل قواه لمحاربة الافكار الجـديدة واستخدم كل وسيلة مغـرية لشد الناس الى العبادة القديمة وهذه الناحية تتمثل في ان مجتمع سامراء قد صنع لنا الدمى المصورة للأم والرموز المعبرة عـن الرجل مـن الرخام

وبأعداد كبيرة وهذا ما شاهدناه لاول مرة في تل الصوان بينما دمى المواقع الاخرى مصنوعة من الطين ونسبة عددها من القلة بحيث لا يمكن مقارنتها مع عدد الدمى الحجرية التي اظهرها لنا موقع تل الصوان •

ومن الامور الاخرى التي تؤيد افتراضنا ، هو اننا قد حصلنا من موقع تل الصوان على دمى حجرية تصور الارنب • وغرض هذه الدمى في اعتقادنا هو التأكيد على فكرة الخصوبة والوفرة في الانتاج لان الارنب كما ذكرنا هو من الحيوانات الولودة بكثرة ويرمز الى الخصوبة حتى في وقتنا الحالي •

هذه ناحية والناحية الاخرى التي تؤيد كون قيام سكان حضارة سامراء فعلا بمحاولات اصلاحية واسعة لابعاد الناس عن الافكار الجديدة وسخروا فنونهم لتثبيت فكرة عبادة الخصوبة وما يولد حياة جديدة لاننا وجدنا فخاريات حضارة سامراء وحدها قد رسمت عناصر فنونها النباتية والحيوانية بتوزيع خاص ضمن القطعة الفنية الواحدة ذلك التوزيع الدائري المتصل الذي نعتقد انه تعبير وتأكيد على ان استمرارية الحياة لا تتحقق الا بالخصوبة والتكاثر اللذان هما جوهر عبادة هذه الفترة • أنظر حول ذلك الصورة رقم (٨) •

ولذا اعتقد بان هذه المحاولة الاصلاحية ومعها بقية الوسائل المغرية قد قللت بالتأكيد من اندفاع الرجال نحو الافكار الجديدة ولذا لم يكتب لها النجاح في مناطق نفوذ حضارة سامراء وانما نمت وانتشرت في القسم الجنوبي من العراق الذي ظهر فيه المعبد لاول مرة في تاريخ وادي الرافدين الذي كان وظل المكان الذي تجرى فيه طقوس عبادة الآلهة الممثلة للقوى الطبيعية • وظهور المعبد لاول مرة في القسم الجنوبي من العراق يعتبر بحد ذاته اشارة صريحة الى ان جنوب العراق قد تبنى أفكارا دينية تختلف عن أفكار شماله بحيث انها استوجبت ظهور هذا البناء الديني •

اما ما يخص أنصار الديانة الجديدة الذين قلنا بانهم لابد وان لاقوا اضطهادا وتشريدا فالحقيقة ان افتراض مثل هذا الشيء أمر ممكن ولكن اثباته ماديا وبشكل واضح أمر فيه بلاشك بعض الصعوبات • ولكن مع هذا هناك بعض الامثلة المادية التي قد تستطيع ان تعطينا ولو صورة غير واضحة كليا ومن هذه الامثلة المادية هو ان اقدم القطع النحتية المجسمة التي وجدت في القسم الجنوبي من العراق تمثل رجالا باركين مكبلين بالقيود وفي وضعية لا تختلف اطلاقا عن الوضعية التي يكبل بها أسرى الحرب في منحوتات العصور التاريخية • وعليه أعتقد ان هذه القطع النحتية ما هي على الاكثر الا تعبير عن الاضطهاد الذي لاقاه معتنقوا فكرة عبادة القوى الطبيعية في فترة نضالهم ضد عبادة فكرة الخصوبة وما يولد حياة جديدة ، تلك الفكرة التي أصبحت بالنسبة لناطق نفوذ حضارة سامراء فكرة بالية ولا تفي بحاجة سكان تلك المناطق • وربما لا أغالي اذا قلت بان فن النحت السومري قد تأثر بمثل هذه الوضعية ، ولذا نجد حاليا بان جميع التماثيل السومرية تصور اليدين في وضعية تشابه الى حد كبير وضعية اليدين المقيدتين والذي يؤيد هذه الفكرة أكثر فأكثر هو ان التماثيل السومرية المبكرة نجد

فيها وضعية اليدين لا تختلف عن وضعية اليدين في القطع النحتية الاولى التي صورت لنا الرجال المكبلين بالقيود ، هذه ناحية والناحية الاخرى التي أجدها أيضا دليلا آخر يؤيد صحة هذه الفرضية هو ان جميع التماثيل البشرية عملت في العصور السومرية بأسلوب غير واقعي بحيث ان التماثيل الآدمية نحتت بوضعية فيها من التجريد ما توحي بالمعاناة التي لاقاها حملة الافكار الجديدة ، هذا وبلا شك فان كثيرا ممن وقفوا ضد الافكار القديمة قد قدموا خلال مراحل نضالهم أروع صور للبطولة والنضال وأعتقد ان الصورة رقم (٣) ربما فيها تعبير أو انها محاكاة لصور اولئك الابطال الذين ضمدوا حتى تكلل نضالهم بالنجاح والناحية التي تؤيد ان التماثيل الآدمية السومرية قد امتازت بهذا الاسلوب للسبب الذي ذكرناه لان الفنان السومري عندما يصور أية حاجة لا علاقة لها بمرحلة النضال التي افترضناها ، نجده يصورها بأسلوب واقعي نسبيا ، ولهذا السبب نجد بان الفن في الفترة الاكدية قد تحرر الى حد ما من التجريد ومسحة المعاناة الموجودة في التماثيل السومرية ، لان ماضي الاكديين لا علاقة له بماضي السومريين .

اذاً فتجريد التماثيل الآدمية السومرية ومسحة المعاناة التي تحملها تلك التماثيل كانت مقصودة وان هذا الاسلوب حسب ما نعتقد فرضته نوعية التماثيل الاولى . ومهما يكن في هذا الحديث من مغالاة فانه يستند على حقيقة واضحة الا وهي ان الفنون دائما وأبدا تخدم أغراض الانسان وتعبر عن مآسيه وأفراحه ، وبلا شك ان الجميع قد لمس بكل وضوح تأثير معاناة المسيح على الفنون المسيحية فالصليب الذي صلب عليه صار رمزا مهما لدى المسيحيين وأساسا لتخطيط كنائسهم كما ان جميع المنتجات الفنية المسيحية فيها مسحة المعاناة التي عاشها المسيح عند تبشيره بالديانة المسيحية ولذا فانه ليس غريبا علينا الآن ان نفترض بان ما حدث مع الفنون المسيحية قد حدث ما يماثله مع الفن السومري .

هذا وبغض النظر عن الدليل المادي الذي طرحته فانني أستطيع ان اؤكد على حدوث حركة تحررية خلال الفترة التي سبقت ظهور الكتابة المسمارية لان المشتغلين بآثار هذه المرحلة التاريخية قد ميزوا لنا نوعين من الافكار الدينية ، الاول المتمثل بعبادة الآلهة الام التي كانت رمزا للخصوبة وكل ما يولد حياة جديدة وسادت هذه العبادة في الاقسام الشمالية من العراق والثاني هو عبادة القوى الطبيعية التي مارست طقوسها في المعابد وانتشرت هذه العبادة في الاقسام الجنوبية من العراق وذلك بعد انتقال مركز الحضارة القديمة من الاقسام الشمالية الى الاقسام الجنوبية من العراق .

وقياسا على ما يحدث من صراع بين الافكار المعتاد عليها مجتمع ما والافكار الجديدة التي تظهر في ذلك المجتمع نستطيع ان نتصور بكل سهولة ان تحول الناس في معتقداتهم من عبادة الخصوبة وكل ما يولد حياة جديدة الى عبادة القوى الطبيعية لم يحدث بصورة سلمية وانما تم بعد صراع طويل بين الفكرتين وهذا الصراع لم يفسح المجال للفكرة الجديدة كي تنمو في المكان الذي ظهرت فيه وعليه فان عبادة القوى الطبيعية لم يكتب لها النجاح الا بعد ان انتشرت في مجتمع

آخر مجاور الا وهو القسم الجنوبي من العراق •

ومن الامثلة العديدة على وقوف المجتمع المتطور ضد الافكار الجديدة التي تظهر فيه وعدم فسحه المجال لها للنمو في داخله وانما تنمو وتتطور في مجتمع آخر مجاور أقل حضارة من المجتمع الاول هي فكرة الوحدانية ، فقد ظهرت في مصر زمن الفرعون امنوفس الرابع الملقب باخناتون ، ولكنها نمت وتطورت في فلسطين • والاسلام ظهر في مكة المكرمة ، ولكنه انتشر في المدينة المنورة ، والاشتراكية ظهرت في ألمانيا وانكلترة ولكنها نجحت في روسيا والصين وغالبية الدول النامية • والذي يجعل من فرضية ان الافكار التي تنشأ في مجتمع متطور لا يكتب لها النجاح في الحال الا في مجتمع آخر أقل تطورا من المجتمع الاول قانونا حضاريا هو ما شاهدناه عند محاولة تطبيق الشيوعية في مجتمع رأسمالي متطور مثل ألمانيا الديمقراطية وجيكوسلوفاكيا ، من ان المحاولة واجهت كثيرا من الصعاب حتى فرضت نفسها •

وكذلك الحال بالنسبة لعبادة القوى الطبيعية فانهاظهرتفيمناطقنفوذ حضارة سامراء وبالاخص في تل الصوان ولكنها نمت وتطورت في القسم الجنوبي من العراق الذي كان آنذاك أقل تطورا من المناطق المذكورة • والناحية التي تدعم هذا التطور الديني الذي حدث في العراق القديم خلال الفترة التي سبقت ظهور الكتابة وان البيئة والعوامل المناخية هي التي تطلبت ان يكون التطور بالشكل الذي عرضناه لاننا لو القينا نظرة عابرة على تطور الديانة المصرية في الفترة التي سبقت ظهور الكتابة الهيروغليفية لوجدنا بان التحول الديني في مصر نشأ لاسباب سياسية وليست بيئية لان المناطق التي شغلتها الحضارات المصرية لا تملك هذا التفاوت البيئي الذي رأيناه في العراق ، لان بلاد مصر كانت آنذاك تمثل بيئتها المناخية والجغرافية وحدة متكاملة ، ولذا فان التحول الديني الذي حدث في مصر والذي سنشرحه فيما بعد لم يكن تحولا جذريا كما هو الحال بالنسبة للديانة في العراق القديم وقد تبين ذلك لنا عندما حاول علماء الاجتماع تفسير مشكلة الملكية الفرعونية وكيف أصبح الفرعون هو الاله ، تلك المشكلة التي تعذر حلها لفترة طويلة لان الملكية الفرعونية ظهرت منذ العصور القديمة حوالي ٢٨٠٠ ق•م• في صورة نظام كامل النمو يوهم بانه قد وصل غاية نموه دفعة واحدة ومن غير مشقة شأنها شأن منيرفا آلهة الحكمة والفنون والحرب عند الاغريق التي تذكر الاسطورة انها خرجت مدججة بالسلاح من مخ جوبيتر • ولكن الحفائر المتعددة لفترة العصر الحجري الحديث أرتنا بان مصر قبل ان توحد تحت لواء ملك واحد كانت مقسمة الى أقسام متعددة لكل قسم آلهته وحكامه أي انها كانت مقسمة الى دويلات مدن على غرار دويلات المدن السومرية وكانت كل دولة مدينة تتخذ لنفسها شعارا يضم شملها وهذه الشعارات كانت صوراً للحيوانات مثل الصقر والكلب والعقرب الخ ، أو صورا للنباتات مثل القصب والجميز والنخيل ، ولذا فقد أكد علماء الاجتماع على ان هذه الشعارات كانت رموزا لطواطم مختلفة ولذا نستطيع ان نفترض بان دويلات المدن المصرية كانت عبارة عن عشائر طوطمية مختلفة أيضا • وعندما تمركزت السلطة

بيد شخص واحد وظهرت الملكية الفرعونية ، اعتبر الملك من سلالة الطوطم وكما لو كان الطوطم متجسداً في شخصية الملك وممثلا له وهذه الناحية بالذات هي التي جعلت من الفرعون ان يكون هو الاله والمالك الوحيد للارض والموزع لجميع النعم الارضية والآلهية وهو وحده الواسطة بين الناس والآلهة ، فهو الكاهن والساحر وهو قائد الناس في الحياة الدنيا وفي الطريق الذي يقود الى الجنة • ولذا فقد برز الفرعون في التاريخ كأعظم قوة معنوية استطاع الانسان ان يتصورها •

فمن هذا يتبين ان التحول الديني الذي حدث في مصر في فترة العصور التاريخية لايختلف كثيرا عن طبيعة الديانة الطوطمية لفترة العصر الحجري الحديث ما عدا تمركز السلطة بيد طوطم واحد وذلك بسبب تمركز السلطة السياسية بيد دولة مدينة ذلك الطوطم •

اذاً فالتحول الديني في مصر القديمة لم ينشأ لاسباب بيئية بل لاسباب سياسية كما ذكرنا ، وعليه فان تطوره قد سار في خط يغاير الخط الذي سلكه التطور الديني في العراق القديم ، ذلك التطور الذي لم يصل ذروة كماله في العصور التاريخية الا بعد نضالات مستمرة وجلد وصمود •

وبعد هذا العرض نرجع ونقول اذا صحت هذه الفرضيات التي ذكرناها والتي مفادها بان فكرة الديانة السومرية المتمثلة في عبادة القوى الطبيعية قد ظهرت في مناطق نفوذ حضارة سامراء وان طابع الفن السومري متأثر بما عاناه السومريون في مرحلة نضالهم من أجل تلك الفكرة وذلك على غرار ما حدث مع الفنون المسيحية ، اذ ان طابعها المميز بالمعاناة ما هو الا لتبريز تلك المعاناة التي لاقاها المسيح عليه السلام عندما بشر بدعوته ، فاننا في هذه الحالة نستطيع ان نؤكد على ان السومريين هم من سكان الاقسام الشمالية ، جاء قسم كبير منهم الى الجنوب بسبب الاضطهاد الذي لاقوه في الفترة التي خمنا ان حدثت فيها حركة تحررية تدعو الى عبادة القوى الطبيعية وتسخر من عبادة الخصوبة وما يولد حياة جديدة • واختلط هذا القسم المهاجر مع الذين كانوا موجودين قبل مجيئهم في القسم الجنوبي من العراق • والجماعة التي كانت موجودة في جنوبي العراق قبل هجرة هذا القسم الذي حمل معه الديانة الجديدة المتمثلة في عبادة القوى الطبيعية تتألف في نظري من المهاجرين أيضا الذين جاءوا من الشمال الى القسم الجنوبي من العراق بسبب تزايد عدد السكان الذي حدث ضمن حضارات حسونة وحلف وسامراء خلال الفترة التي سبقت ظهور الحركة التحررية الآنفة الذكر وكذلك من سكان الجنوب الاصليين الذين كانوا آنذاك مغلوبين على أمرهم وذلك بطبيعتهم المسالمة بسبب بيئة الجنوب أو ربما بسبب قلة عددهم بالنسبة لمهاجري الاقسام الشمالية وتأخرهم الحضاري •

وبلا شك ان هذا الرأي الذي يفترض على ان الجنوب كان مسكونا قبل مجيء المهاجرين أي السومريين من الاقسام الشمالية اليه يفسر لنا بسهولة أسماء المدن السومرية التي هي ليست سومرية الاصل لانها في هذه الحالة ستكون أسماء فرضتها لغة السكان الاصليين واقتبسها السومريون

بعد مجيئهم ، لان أسماء المناطق لا تتغير عادة بسهولة •

هذه ناحية والناحية الاخرى التي أود ان أطرحها للمناقشة هي انني اعتبر ان اسم السومريين واسم منطقة سومر مشتق من اسم منطقة سامراء القديم تلك المنطقة التي افترضت انها كانت موطنهم الاصلي قبل هجرتهم الى الجنوب ، لاننا لو حذفنا من كلمة سامراء حرفي الاليف والهمزة اللذان اضيفا الى الاسم القديم بتأثير اللغة العربية ، كما هو الحال مع اسم مدينة « اورك » القديمة التي أصبحت الوركاء في الوقت الحاضر ، فيبقى لدينا من اسم المدينة « سامر » فقط وهذا الاسم لا يختلف كثيرا عن اسم « سومر » اذ ان الحروف الصحيحة في كلا الكلمتين واحد • هذا جانب والجانب الآخر والاكثر أهمية هو ان مدينة سامراء كانت تلفظ في السابق وبالاخص في عام ٣٦٢م وقبل هذا التاريخ أيضا باللفظ « سومر — Sumere » الذي لا يختلف اطلاقا عن لفظ منطقة سومر في الكتابات المسمارية القديمة (أنظر حول ذلك ترجمة الاستاذ فؤاد جميل لوصف المؤرخ الروماني اميانوس مرشيلينوس لحوادث الحملة العسكرية التي قادها الامبراطور الروماني جوليان لغزو الشرق وموته في المعركة التي خاضها ضد سابور الثاني عند جبال حمرين (المنشور في مجلة سومر المجلد ١٧ • حول اسم سامراء القديم أنظر ص ١٦٧ والملاحظة رقم ٧٤) •

وأخيرا فانني لا أريد ان أقول في هذا المجال بان الآراء التي افترضت على ان أصل السومريين من منطقة تقع خارج حدود العراق آراء مغلوطة ولكنها في حقيقتها آراء مبتورة ، لانها افترضت السومريين مهاجرين ولم تبين لنا بشكل واضح من اين جاءوا • اما هذه المقالة فقد ناقشت أصل السومريين بأسلوب جديد ونأمل ان ينال هذا الاسلوب انتقاد واهتمام المختصين علنا نستطيع ان نؤكد في المستقبل صحته أو عدمه كي نبدأ محاولات أخرى علها تزيننا أصل السومريين الذي أصبح قصة لا تنتهي •

وفيما يلي نماذج من فن النحت السومري المجسم أخترناها ووصفناها بالشكل الذي يدعم الفكرة المطروحة في هذه المقالة :ـ

الصورة رقم (١)

ثلاثة تماثيل مصنوعة من حجر الكلس عثر عليها في حفريات عام ١٩١٢/١٣ في مدينة الوركاء • عثر عليها ضمن الانقاض التي كانت موجودة تحت المعبد البارثي بيت ريش • وهي تصور ثلاثة أشخاص مكبلين بالقيود وذلك على غرار ما هو واضح في الصورة رقم (٢) •

وأعتقد ان كون موضوع أقدم التماثيل السومرية المجسمة هو الاسر والتعذيب ناحية تلفت النظر وربما تؤيد الافتراض الذي رمت اليه المقالة • التماثيل موجودة الآن في متحف برلين وصورها منشورة في :

(A. Moortgat, Die Kunst des Alten Mesopotamien).

الصورة رقم (٢)

تمثال لرجل ملتحي مكبل اليدين بالقيود ، عثر عليه في مدينة الوركاء خلال حفريات البعثة الالمانية لعام ١٩٦٦ • والتمثال محفوظ الآن في مخازن مديرية المتحف العراقي • والواقع ان ما يلفت النظر هو ان مدينة الوركاء وحدها هي التي

قدمت لنا النماذج المبكرة لفن النحت السومري المجسم بالوضعية التي توحي الى الاسر والتقييد • وسبب ذلك في نظرنا هو ان مدينة الوركاء من أقدم وأهم المدن السومرية التي تركزت فيها السلطة السياسية لا الدينية ، وتأكيد السلطة السياسية على مراحل النضال الاولى مبعثه بلا شك تبرير ظهورها وأخذها الزعامة بيدها وذلك على حساب الزعامة الدينية • وأعتقد ان الصورة التالية قد تؤيد هذا الافتراض •

الصورة رقم (٣)

صورة لتمثال معروض في بداية القاعة السومرية من المتحف العراقي ، عثر عليه في مدينة الوركاء والتمثال في نظري فيه تعبير أو انه محاكاة لتماثيل اولئك الاشخاص الذين قدموا خلال مراحل نضالهم أروع صورة للبطولة حتى تكلل نضالهم بالنجاح • وان كون هذا التمثال عاري الجسم ووضعية اليدين فيه تشبه وضعية أيدي الاسرى فهو اذاً يصور ويعبر كذلك عن حالة الاسر والتعذيب التي لاقاها المناضلون • وما دام هذا التمثال في نفس الوقت هو التمثال الوحيد بين التماثيل السومرية الذي يبرز عضلات الجسم بشكل تفصيلي ومعبر عن القوة فانه يدفعنا الى الاعتقاد بانه على الاكثر يصور ذلك المناضل العنيد ، حيث ان نظراته فيها تعبير عن الثقة بالنصر والقدرة على التحمل والصمود • وهذا التمثال نفسه دليل أكيد على ان الفنان السومري المبكر كان قادرا على صنع تماثيله بالاسلوب الواقعي ولكنه مع هذا عمل بقية التماثيل بالشكل التجريدي وفيها مسحة للمعاناة ، ومعنى هذا ان التماثيل السومرية عملت للغاية التي تقصدها بهذا الاسلوب • التمثال من عصر جمدة نصر •

الصورة رقم (٤)

نشاهد في صورة هذين الرجلين ان وضعية اليدين عملت بأسلوب يشابه تماما وضعية اليدين على التماثيل الاربعة التي صورت لنا الاشخاص المكبلين بالقيود • وهذا في نظرنا يدل بلاشك على ان وضعية اليدين في التماثيل السومرية متأثرة الى حد كبير بوضعية أيدي الاسرى والناحية الاخرى التي تؤيد كون صورتي هذين التمثالين وبقية التماثيل المبكرة ترمز الى الاضطهاد والاسر لانهم جميعا مصورون عراة ونحن نعرف بان الاسرى كانوا يُصوَرونَ في بلاد وادي الرافدين دائما وهم عراة • وعليه فأنني أعتقد بان كون الكهنة السومريين عراة أيضا مبعثه التأكيد على مراحل النضال الاولى وتمجيدها كما تفعل جميع الشعوب في الوقت الحاضر •

التمثالان معروضان الآن في متحف اللوفر في باريس ومنشوران كذلك في :

A. Moorlgat, Die Kunst des Alten Mesopotamien.

الصورة رقم (٥)

في هذه الصورة ثلاث وضعيات مختلفة لتمثال واحد يكاد يكون نسخة طبق الاصل للتمثالين المعروضين في الصورة رقم (٤) • وهذا التمثال وبقية التماثيل الاخرى تؤيد الفكرة التي مفادها بان التماثيل السومرية المبكرة ما هي الا تعبير عما لاقاه السومريون في فترة نضالهم من أجل تثبيت فكرة عبادة القوى الطبيعية • الصورة منشورة في نفس المصدر المذكور تحت شرح

الصورة رقم (٤) • والتمثال محفوظ الآن في جامعة زوريخ •

الصورة رقم (٦)

تمثال لامرأة عثر عليه في مدينة الوركاء ومعروض الان في بداية القاعة السومرية من المتحف العراقي يوحي لي هذا التمثال انه يصور المرأة التي وقفت مع الرجل في نضاله من أجل انتصار فكرة عبادة القوى الطبيعية ، اذ ان التمثال معمول باسلوب يبرز انوثة ممتنعة عن منح نفسها لكل المغريات ولكل ما فعله الخصوم • وكون التمثال عارياً فهو اذاً كبقية التماثيل فيه تعبير عن مراحل الأسر والتعذيب • ومن المحتمل أن يجد البعض اننا نغالي حينما نحاول أن نبين بأن المرأة قد وقفت الى جانب الرجل وشاركته مختلف جوانب الحياة في هذه الفترة الموغلة في القدم ولكننا مهما نحاول أن نفترض ابتعاد المرأة عن مشاركة الرجل الحياة العملية والنضالية لانستطيع أن نتصور بأن أمهات وزوجات وأقارب المناضلين قد وقفوا مكتوفي الايدي دون أن يشاطروا أبناءهم أو أزواجهم أو اخوانهم نضالهم وعذابهم•

الصورة رقم (٧)

ثلاث دمى طينية تصور المرأة باسلوب مغاير تماما للالهة الام التي صورت خلال الحضارات الزراعية التي سادت في الاقسام الشمالية من العراق • وهي في نظرنا دليل على ان المرأة في القسم الجنوبي من العراق لم تتخذ كرمز للخصوبة وما يولد حياة جديدة كما كان الحال في الشمال • وهذا بطبيعة الحال يؤيد على ان الجنوب قد تبنى فعلا أفكارا تغاير أفكار شماله • وربما هناك من يقول بأن الجنوب قد قدم كذلك بعضا من الدمى النسائية وبالأخص من فترة العبيد تشبه تماما الدمى المصورة للالهة الام • وجوابنا على ذلك انه بالتأكيد كان بين سكان الجنوب عدد ليس قليل ممن بقوا على عاداتهم القديمة ورفضوا الافكار الجديدة • ومثل هذه الظواهر موجودة حتى في عصرنا الحاضر •

تعقيب اخير

لقد حاولنا أن نبين بأن الحركة التحررية المذكورة قد حدثت في أواخرا الألف الخامس قبل الميلاد وربما استمرت حتى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد حتى تكللت جهودها بالنجاح ، وقدمنا كذلك نماذج من الفن السومري واعتبرناها دليلا على تلك الحركة • هذا مع العلم بأن القطع الفنية التي عرضناها ترجع بتاريخها الى ما بين ٣٥٠٠ ـ ٣٢٠٠ ق•م تقريباً والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال ، لماذا بدأ السومريون تصوير مراحل نضالهم بعد انتظار دام حوالي ألف سنة على ما يرجح • وتعليلنا لذلك انه بعد كل ثورة تتسلم مقاليد الحكم تبدأ المنافسة بين القياديين على الزعامة ، وما دام العراق القديم كان على شكل دويلات مدن فان فترة الصراع على الزعامة قد دام هذه المدة الطويلة الى أن حانت الفرصة لمدينة الوركاء لان تتسلم تلك الزعامة وبدأت تمجد مرحلة النضال الاولى فقدمت لنا لذلك منتجاتها الفنية بشكل صور مختلفة لتلك المرحلة • وهذا ما حدث مع الفنون المسيحية كذلك اذ أن الصليب وبقية المنتجات الفنية المسيحية

ما ظهرت الا بعد مضي ما يزيد على الثلاثة قرون بعد المسيح •

وهذا في الواقع ينطبق على جميع الحركات الفكرية القديمة الناجحة ، اذ ان تمجيدها والتأكيد عليها يبدأ بعد مضي فترة طويلة من الزمن على حدوثها •

لـوح – ١

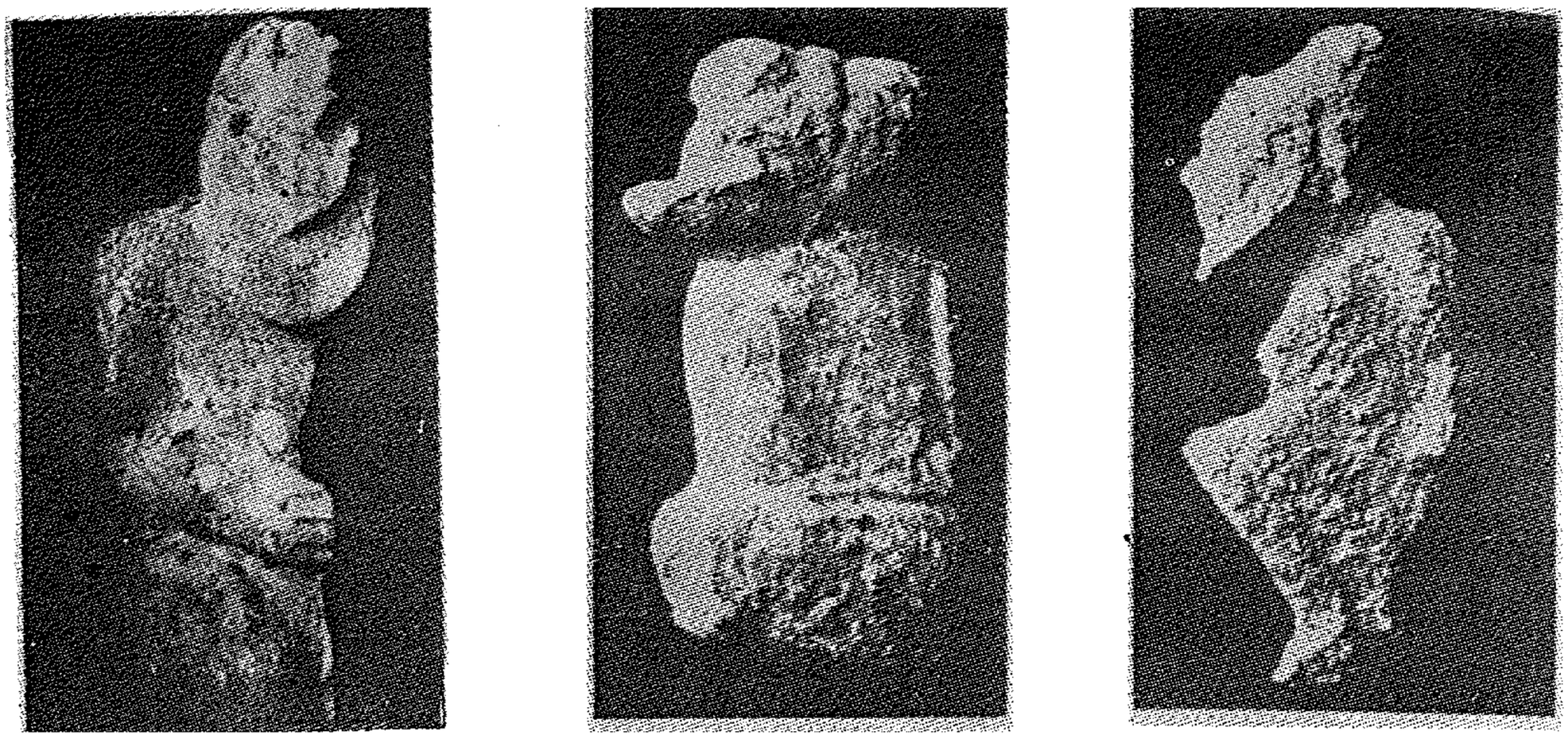

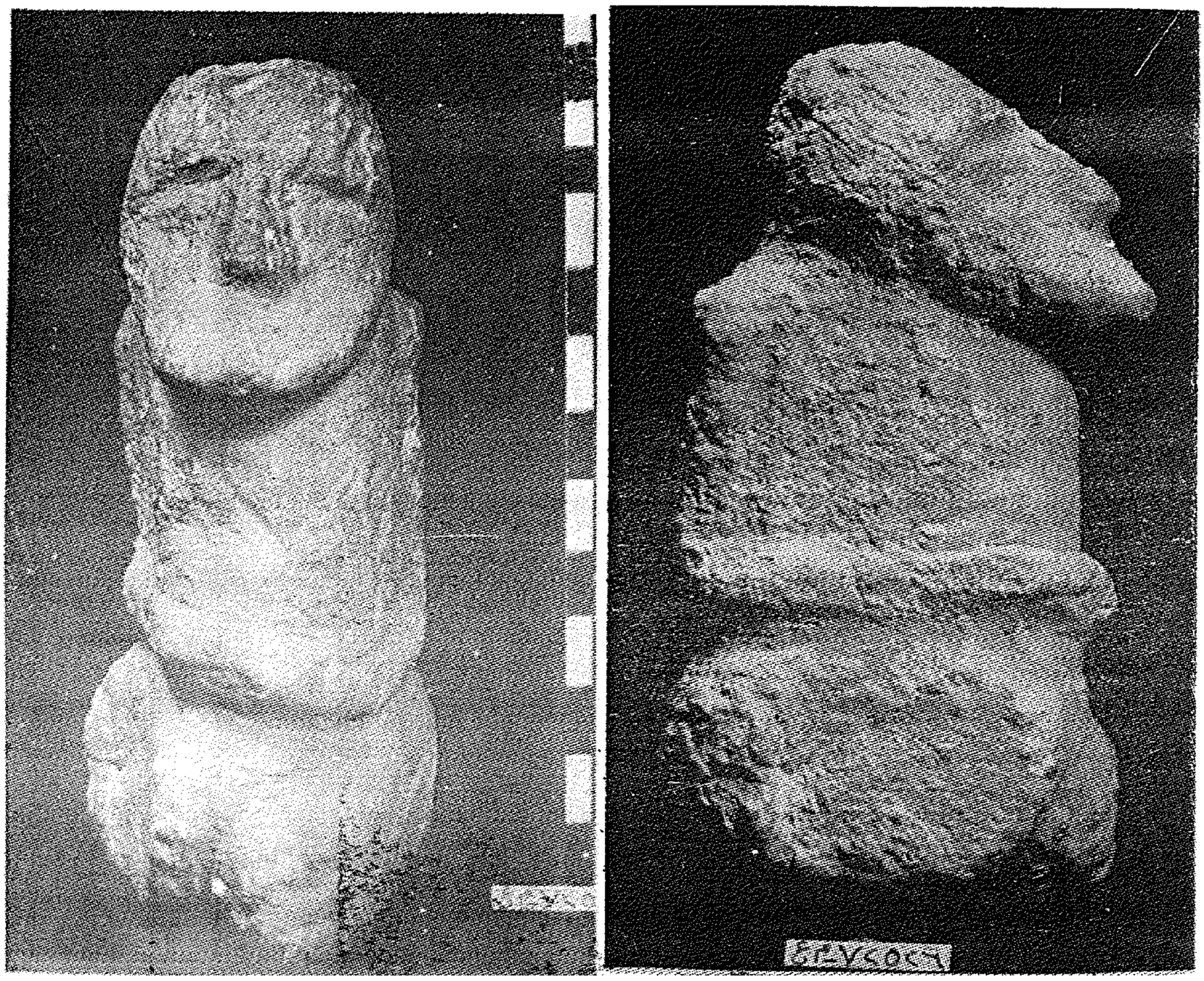

رقـم – ٢

رقم ـ ٣

رقم ـ ٤

رقم ـ ٥

لـوح ـ ٣

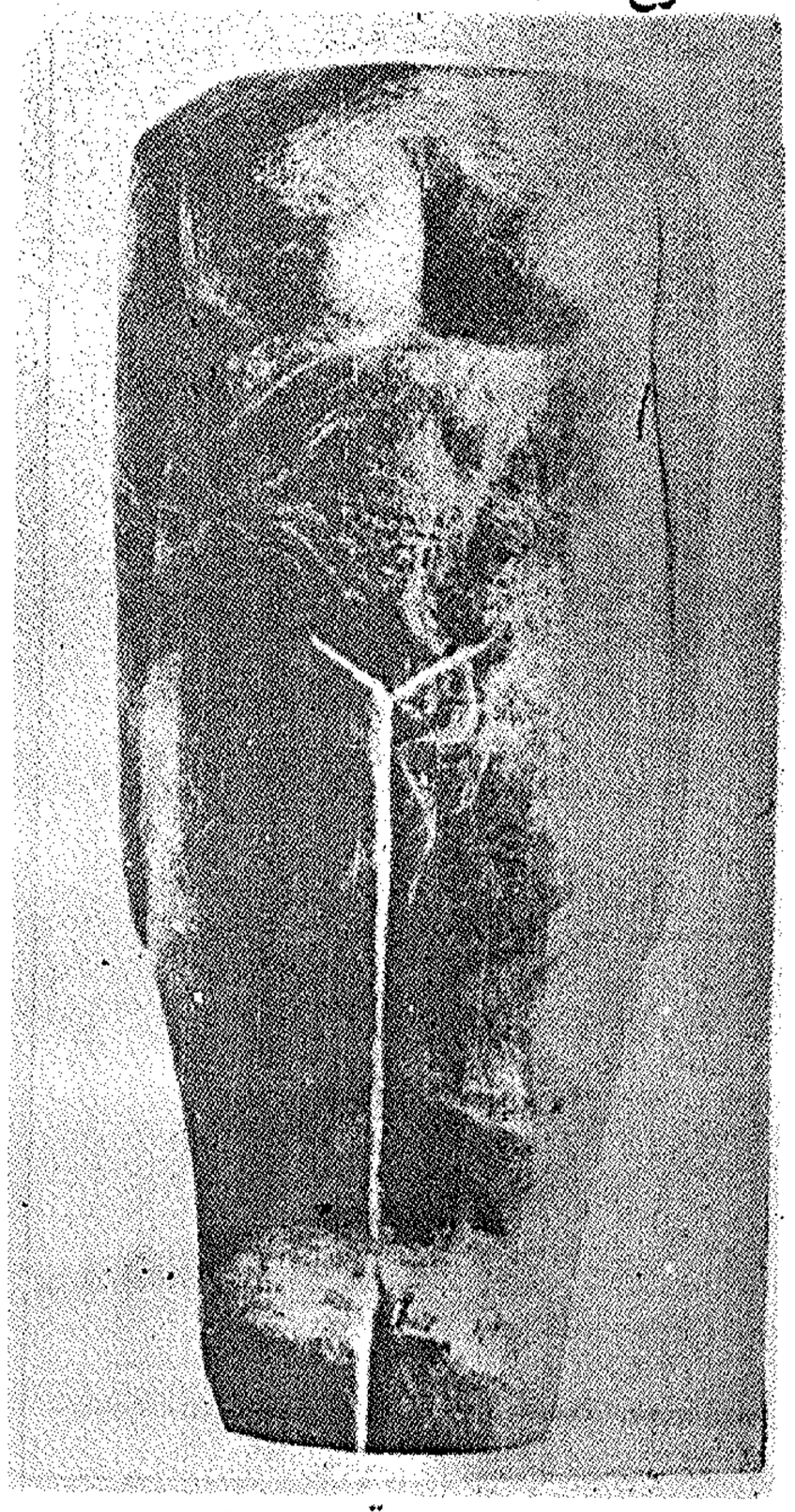

رقـم ـ ٦

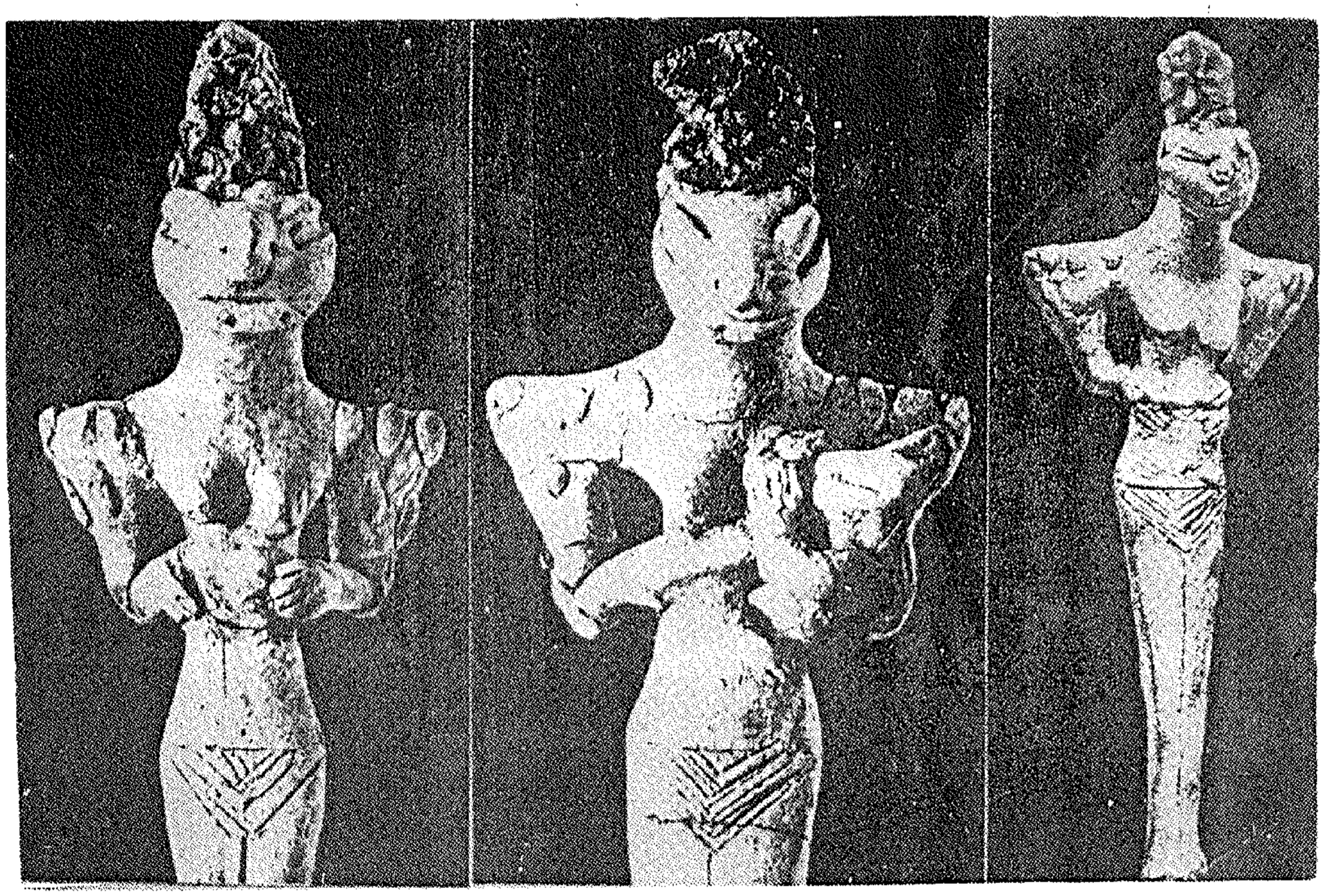

رقـم ـ ٧

لـوح ـ ٤

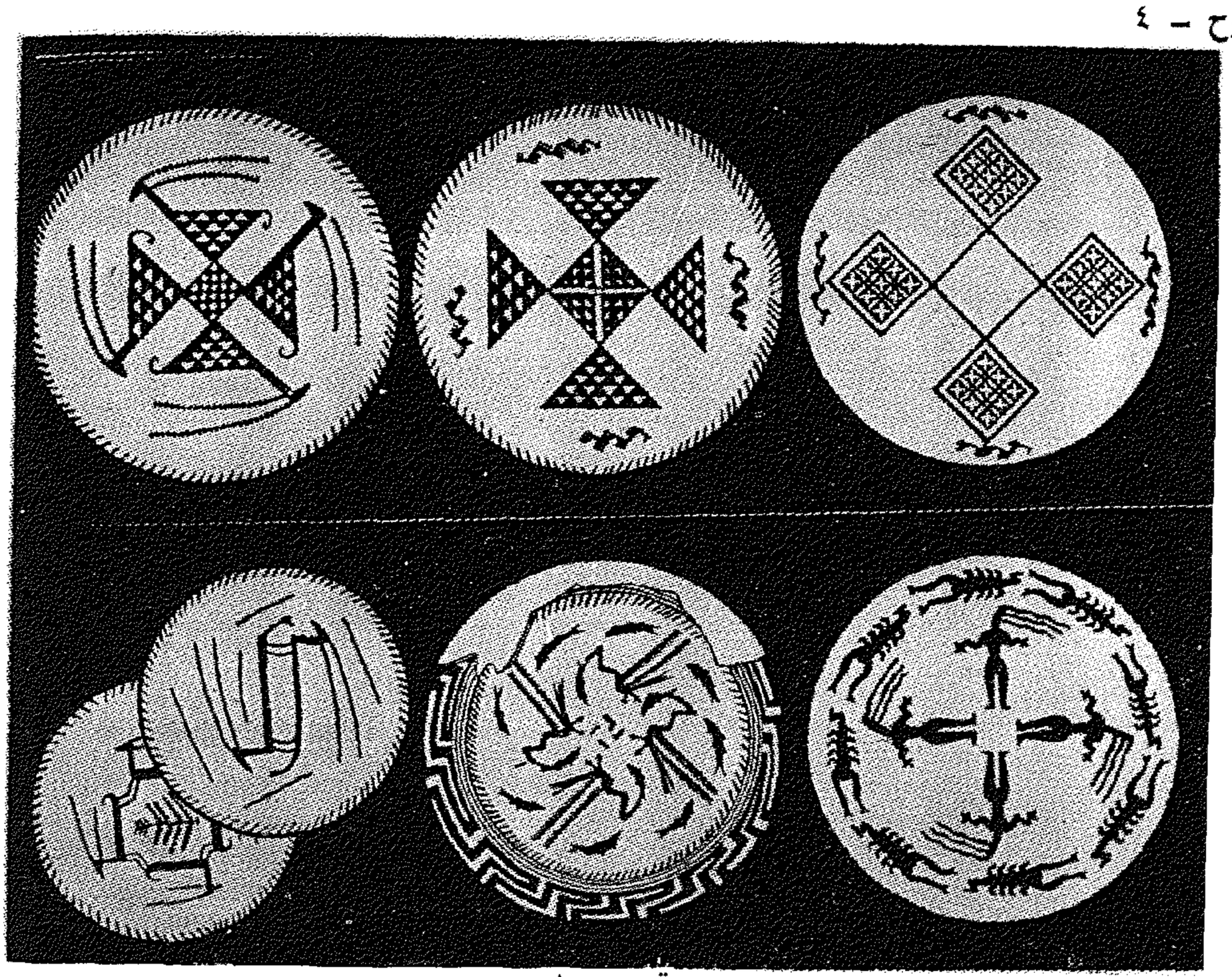

رقـم ـ ٨

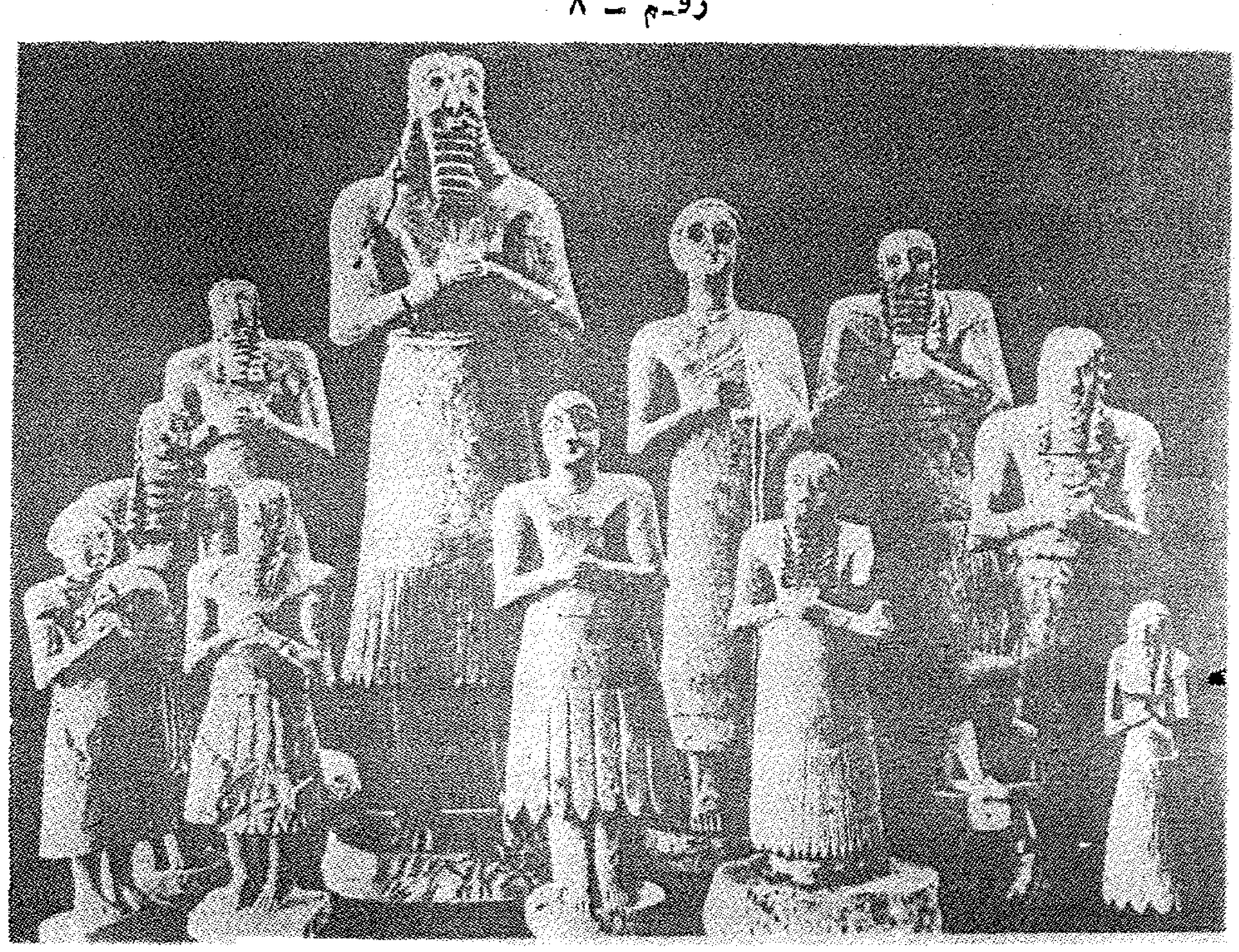

رقـم ـ ٩